تمهيد

خلق الله الإنسان وجعله خليفة فى الأرض ليدير شئونها ويصرف أمورها، وميزه على سائر أعضاء المنظومة الحيوانية التى هو فى قمتها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١).

ويأتى تمييز الإنسان على غيره من المخلوقات بسبب طبيعة تكوينه التى جعلته يجمع بين العقل والعاطفة أو الروح والجسد أو الخير والشر.

إذن فللإنسان ناحيتان: ناحية جسمانية، وأخرى معنوية.

فالجسمانية هى هذه الصورة الظاهرة المنظورة، أو هذا الجسم الطويل العريض الذى تعتريه الأمراض والأوجاع المختلفة، فيموت ويستحيل إلى تراب قد تدوسه الأقدام.

والناحية المعنوية هى الصورة الباطنة التى بها يتشكل الجسم ويحيا، ويسعد ويشقى، أو النفس البشرية التى تكتسب الأخلاق الحميدة أو الصفات الذميمة وهى التى عناها الله بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (٢).

وسر حياة الإنسان لا يتركز فى تلك الصورة الظاهرة المنظورة وإلا لكان هناك من الحيوانات ما هو أفضل من الإنسان، وإنما سر الحياة يتركز فى هذه الصورة (المعنوية) الباطنة المهيمنة على كل حركة يأتيها أى جزء من أجزاء تلك المادة الظاهرة.

وفى هذا يتفاوت الناس بين خيِّر وشرير، ومؤمن وكافر، وخلق حسن وآخر ردىء ولكل من هاتين الناحيتين – الجسمانية والمعنوية – جاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ (٣).

ولكى يحيا الإنسان حياة تكون فيها العلاقات سليمة مع أبناء جنسه، أو مع سائر المخلوقات حتى مع موارد الطبيعة، لا بد من قواعد خلقية تحكم سلوكه بحيث يتصرف وكأنه لكل سلوك من سلوكياته يسن قانونًا أخلاقيا اجتماعيًا وأن يعمل العقل والفكر دائما وأبدا، فى كل عمل يقوم به، إذا سارت الأمور هكذا تنتظم حياة الفرد والمجتمع، وتتحقق الفضيلة – خاصة – إذا وضع كل عضو فى المجتمع حيث يتلاءم موقعه مع قدراته.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) سورة الشمس الآية ٧ – ١٠.

(٣) سورة التين الآية ٤ – ٦.

أما إذا سادت الفوضى، وانتفت الأخلاق الضابطة لسلوك الناس مع أنفسهم، ومع بعضهم، عندها يسود (قانون الغاب) ويدب الفساد فى جسم المجتمع مما يعرضه للانهيار والخطر.

انطلاقًا من هذه المعايير والقيم، ورحمة بالإنسان المستخلف فى الأرض، بعث الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[1] ولكى ينشروا الهداية، ويدعوا الناس إلى مكارم الأخلاق والقيم الدينية النابعة من الإسلام الذى قال الله تعالى فى حامل رسالته النبى محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

إن مكارم الأخلاق من القضايا الرئيسية فى الإسلام الذى هو خاتم الأديان، بل هو لب الرسالة الإسلامية التى لخصها الرسول الكريم ﷺ فى قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

إن الأخلاق من الموضوعات التى تشغل حيزا هامًا فى التشريع الإسلامى الحنيف، وذلك لأنها روح الحياة الإنسانية، وقبس النور فى هذا الوجود المظلم، فقد فطر الله الإنسان على الأخلاق الكريمة، وقد سار الإنسان على ضوئها واهتدى بهداها، وأخذ يبثها فى نفوس الأبناء والأحفاد عبر الأجيال.

لكن النفس البشرية تتأثر بعوامل مختلفة تخضع لبعضها تارة، وللبعض الآخر تارة أخرى، فإذا اتبعت النفس الإنسانية صوت الضمير الأعلى سلكت سبل الهدى والرشاد وإذا أذعنت لقوة الشهوة فإنها تهوى إلى طريق الضلال.

والأبناء يرثون عن الآباء عادات وتقاليد أخلاقية متعددة كما يتأثرون ببيئاتهم، فمنهم من يتأثر بجانب الخير، ومنهم من يتأثر بجانب الشر، ولذلك كان لا بد من وضع قواعد أخلاقية تبين الفضيلة والرذيلة، والغاية من الأخلاق، والطريق المؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة.

فالإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن الأخلاق فى أية لحظة من لحظات حياته، ولا يستطيع أن يستغنى عن مثل أعلى فى سلوكه، أو أن يعيش بدون قيم.

والواقع يؤكد أن صلاح الأمم والجماعات والأفراد يعتمد على الأخلاق.

وكم من أمة حدث لها تقدم مادى وتخلفت أخلاقيا فانهارت حضارتها سريعا.

وكم من أمة لها رصيد أخلاقى وليس لها رصيد مادى ولكن بهذا الرصيد الأخلاقى تطاول الشمس وتفخر بأخلاقها التى لا بد أن تبنى لها حضارة عظيمة فى المستقبل القريب.

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥.

(٢) سورة القلم الآية ٤.

(٣) رواه أحمد.

إذن فالأخلاق لها أهمية قصوى فى حياة الأفراد والأمم فهى التى تبنى الحضارات العظيمة وتكون عاملاً على استقرارها ما دام أصحابها يتحلون بمكارم الأخلاق.

والأخلاق الإسلامية - عموما - يبتغى بها وجه الله تعالى، ثم تبتغى بها الحياة الفاضلة الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١).

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

obeikandl.com